عقدة النقص باللون

من ملامح التمرد السلبي

د . محمد ضو*

سلك عنترة مسالك السادة والقادة والصفوة من القوم ، حيث أحبَّ ابنة عمّه حبّاً عذرياً ، وتغزَّل بها غزلاً عفيفاً ، لا فحش ولا سخف فيه ، وعبَّر في شعره عنها بصدق المشاعر النبيلة التي لم يتجاوز حدَّ العقل ، وما تمليه عليه أعراف القبيلة ونظمها وقوانينها ، فهو الأنموذج الأول للشعر العذري الذي تجذّر فيما بعد في المجتمع الإسلامي واشتهرت به قبائل بني عذرة « وغزل الشاعر في عبلة ، ولا مشاحة ، أفضل غزل ، . . . لأنه يمثل حرمانه ولوعته وتظلمه ، ويبدو فيه أثر العراك العنيف بين حبه وسواد لونه ، وصفة نسبه ، هذا العراك الذي شهدنا مواقعه . . . بين العبودية والفروسية فعبلة لم ترافق عنترة في شعره الغزلي وحده ، بل رافقته أيضاً في فخره وحماسته وذكر حروبه »(1) وتراه يؤكد هذا في قوله:

وَأَكونَ أَوّلَ فارِسٍ يَغْشَى الوَغى   فَأَقودَ أَوّلَ فَارِسٍ يَغْشَاهَا

وَالخَيْلُ تَعْلَمُ وَالفَوَارِسُ أَنّنِي   شَيْخُ الحُروبِ وَكَهْلُهَا وَفَتَاهَا

إشادة من الشاعر بنفسه ويرفع من قدرها بأن نصب منها الفارس الأول الذي يتقدم الجميع ليبعث في نفوسهم بل ليبعث في نفوس قادتها الشجاعة حتى يتقدم لمجالدة الفرسان من القادة والجيش ، ومما يشهد بشجاعته وبسالته أنه مثل كل الأعمار وجميع الشرائح التي انضوت تحت قيادة الجيش من الشيوخ والكهول والفتيان فقد قاتل قتال الشيوخ والفتيان والكهول ويشهد بذلك الخيل وفوارسها الذين حضروا المعركة وعاشوا

* الجامعة الأسمرية ، ليبيا .

(1) بطرس البستاني ، الشعراء الفرسان ، دار المكشوف ، ط2 ، لبنان 1966 ص 177 .

لحظاتها ، ثم ينتقل إلى الموضوع الذي يشغل باله منادياً لعبلة لكي تشاهد هذه الأعداد الكثيرة المتساقطة في ساحة الوغى بعد انتهاء المعركة وما أراد من ذلك إلا تحقيق بعض ما استقر في النفس من كوامن التطلع إلى الثناء ممن كان يعشقها فيقول:

يَاعَبْل كَمْ مِنْ فَارِسٍ خَلَيْتَه فِي وسَطِ رَايَةٍ يَعدَّ حَصَاهَا
يَاعَبْل كَمْ مِنْ حرَّةٍ خَلَيْتَهَا تَبْكِي وَتَنْعَى بَعْلَهَا وَأَخَاهَا
يَاعَبْل كَمْ مِنْ مهْرَةٍ غادَرْتَهَا مِنْ بعد صَاحِبَهَا تَجرّ خطاهَا
يَاعَبْل لَوْ أَنِّي لقِيت كَتِيبَةً سَبْعِينَ ألفاً مَازَهِيت لِقاهَا

تدرَّج الشاعر في نداء هذه المرأة لمشاهدة براعته وقوته في الفتك بالأعداء من خلال النتائج التي تحققت على ظهر الأرض واستعان في ذلك بالتكرار الذي اتكأ عليه فيما مضى من الأبيات ، ثم يؤكد لها هذه الخصلة المتأصلة فيه فورثها كما ورث سواد جلده الذي اكتسبه من والدته وهو أمر عوض عنه بهذه البسالة في ملاقاة الأعداء وما ذلك السواد إلا رداء جميل قد استقرت تحته كل معاني القوة والشهامة والشجاعة فقال:

وَأَنَا المَنِّيَة وَابْن كَلّ منّيةٍ وَسَواد جِلدِي ثَوْبهَا وَردَاهَا(1)

ومما يثير الانتباه ظاهرة التكرار في أكثر من بيت ، ولعل عنترة أراد من خلالها أن يخلق صورة بيانية تجسم الإحساس وتبرزه بشكل واضح؛ حيث كرر حرف النداء مقترناً باسم عبلة ، والحقّ أنَّ هذا التكرار ظاهرة تفرض على الناظر لشعره أن يلتفت إليها ، ولاشك أن الشاعر كان يهدف من ذلك التكرار التأكيد ، أو الاستمتاع ، بترديد اسم عبلة على لسانه ، ويهدف من خلاله أيضاً تعظيم ذلك المنادى « عبلة » وأن يذكر المعادل الموضوعي لقصته وهو تلذذه بكثرة القتل ، إلى أن وحّد بين نفسه والمنية ، وأوغل في ذلك بأن جعل نفسه ابنا للمنية نفسها ، وقرن سواد جلده بثوب المنية ، فهو يصور نفسه في صورة مرعبة ، بأن وحّد نفسه مع المنية من جميع جوانبها ، فالشاعر يبث في ألفاظه نوعاً من الحرارة واللوعة مفتخراً بما يحققه من انتصارات على غير ما كان معهوداً في شعر غيره ، فهو يريد من خلالها أن يكشف عن كل ما يعتلج في أعماقه من ألم وحرقة أو ينقلها

(1) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص: 155 .

من هموم ، فهو يعقد معادلة(1) يريد من خلالها التعويض عن ذلك النقص الذي تميّز به عن بقية أفراد القبيلة ، الذي بقى حاجزاً بينه ، وبين حبيبته التي أكثر من تكرار اسمها تلذذاً به ، كما تلـذذ بقتـل أولئـك الـذين ذكـرهم في الأبيات السابقة .

ومن الجدير ذكره أن شعر عنترة ينبـع مـن جيشـان نفـس متصـل ، ويكاد يسلك مسلكاً واضحاً لا يحيد عنه ، وهو تبرير ذلك اللـون الأسـود الذي نغص عليه حياته وقلّل من شأنه داخل القبيلة ، وحرمه من حقوقه في التعبير عن رأيه:

أعَـادِى صَـرْفَ دَهْـرٍ لا يعَـادَى وَأحْتَمِـلُ القطِيعَـةَ وَالبِعَـادَا
وأظهِـرُ نصْـحَ قـومٍ ضَـيّعوني وَإنْ خَانَـتْ قلـوبهم الـودَادَا
أعَلّـلُ بَـاطِنِى قلبـاً عَلِـيلاً وَبِالصّـبْرِ الجَمِيـلِ وَإنْ تَمَـادَى
تعَيِّرنـي العِـدَا بسـواد جِلـدِى وَبِيَض خَصَـائِلِي تَمْحـو السّـوادَ
سَلِي يَاعَبْـلَ قوْمَـكِ عَـنْ فِعَـالي وَمَـنْ حَضَـرَ الوَقِيعَـةَ وَالطَـرَادَا(2)

« لاشك أن عنترة كان يحس الظلم الاجتماعي واليأس مـن الحـب ، وأن المقياس الخلقي لم يكن معتداً به ، في مجتمع يؤمن بتمييّز دمائه عـن دماء البشر ، فتسـامى في خلقـه وفي حبـه ، وتغلـب علـى الجـرح والألم ، ومضى يثبت رجولته ، ونيله وسموه ، وكان خطابه دائماً موجهاً إلى المـرأة التي أنكرته ورفضت حبه »(3) .

ويعتبر إنكارها له ورفضها لحبه سببه سواد لونه ، ولما كانت التجربة العاطفية عند الشاعر تجربة داخلية لأنه لا يسـتطيع البـوح بهـا أو التحـدث عنها لجأ إلى التعويض عنها يذكر البطولات ، وشجاعته في القتال والنـزال لكن سواد لونه يظل من أشد الأمور الجاثمة على قلبه: ـ

دَعْنِى أجدَّ إلـى العَلَيَـاءِ فِـي الطلـب وَأبْلـغ الغَايَـة القصْـوَى مِـنَ الرّتَـبِ

(1) المعادلة بين سواد جلده وشجاعته النادرة الفذة التي لم تكن توجد عند غيره ، فما أراده عنترة هـو التعويض عن النقص الذي أصابه حراء لونه الأسود بما أتيح له مـن قـوة وصـلابة جعلـت منـه أن يكون هو الموت شيئاً واحداً .
(2) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 46 .
(3) أنور أبو سويلم ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص 26 .

لعَــلّ عَبْلَـة تَضْـحَى وَهِــيَ رَاضِـيَةٌ عَلَى سوَادِي وتَمْحو سـوْرَة الغَضَـبِ(1)

فلقد أصبح همُ الشاعر رضا عبلة ، وهاجسه الـذي يلاحـق شـعوره ، مع أنّ نفسه في ضيق من وطأة الأهل والرقباء في المجتمع ، وتلمح مظهـر العبودية واضحاً من خلال البيت الثاني ، وبالتحديد في كلمة « لعـل » الـتي تفيد الترجّي ، ولا يكون الترجّي إلا من الأقل إلى الأفضل ، وعـنترة يعتـبر نفسه أقلَّ رتبةٍ ، وشرفٍ ممن أحبها « عبلة » ، فهو يسعى لبلوغ الغاية ، التي يقصدها ، وهو رفعة المكانة ، وشرف المنزلة ، وهي منزلة السادة من أمراء القبائل ، وهو يؤكد ذلك في كثير من شعره ، إذ يقلـل مـن شـأن الافتخـار بالنسب ، ويرفع في الوقت نفسه من شأن المزايـا الفرديـة مثـل الشـجاعة ، وقوة الشخصية ، وحسن القيادة ، فيقول:

وَقَـدْ طلَبْـت مِــنَ العَلَيَــاءِ مَنْزِلَــةً بِصَــارِمِي لا بــأُمِّي لا وَلاَ بِــأَبِي(2)

« ولكنه ظل في عين نفسه وعيون أبناء قبيلته ، وكذلك في عـين ابنـة عمه عبلة ، أسود اللون ، وابن أمة حبشية اسمها زبيبة ، وعاشقٌ يتغنى بحبـه تغنى المعذَّب المحروم ، معبراً عن إحساس بـالحزن واليـأس ، والمـرارة ، حاملاً كالوشم هذه اللعنة المتمثلة في كون أُمه آمة وفي كون لونه أسود »(3) وفي ذلك يقول:

سَأَصْـبِر حَتّـى تَطرِحْنِـي عَـوَاذِلِي وَحَتّـى يَضـجّ الصّـبْر بَـيْنَ جَـوَانِبِي
مقامِــكِ فِــي جَــوِّ السّــمَاءِ مَكَانــه وَبَاعِي قَصِيرٌ عَـنْ نَـوالِ الكوَاكِـبِ(4)

يصرِّح عنترة في البيت الثاني بتلك المكانة البعيدة التي تحتلـها عبلـة حيث مكانتها بين الكواكب ، أمـا مكانتـه فهـي غايـة في الـذل والوضـاعة ، فشتان ما بين الثريا والثرى ، وهـو يعلـم تمـام العلـم أن قومـه هـم الـذين وضعوه في هذه المكانة من الذلة والمهانة ، « ولـئن أحـبَّ قبيلتـه وذاد عـن حياضها ، وحمل خير مناقبها ، فهو ينكر عليها موقفاً من أبناء الإماء ومـن لونهم ، ويعبّر عن هذه المعارضة بالمفاخرة بمزاياه ويبطلان مسألة النسـب

(1) عـنترة بـن شـداد ، ديـوان عـنترة بـن شـداد ، ص 21 . وفي روايـة « صـورة » الغضـب ، ولقـد أثبتنا« سوره » لأنها تتناسب مع السياق .
(2) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 21 .
(3) إحسان سركيس ، مدخل إلى الأدب الجاهلي ، دار الطليعة بيروت 1970 ص 188 .
(4) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 21 .

واللون»[1] .

ويقول في هذا المعنى:

وَإِذَا الكَتِيبَـةُ أَحْجَمَـتْ وَتَلاحَظَـتْ ألفِيـتَ خَيْـراً مـن معِـمَّ مِخْـوِلِ[2]

فالمتمعن في هذا البيت يتضح له جلياً أن عنترة يعاني عقدة ومرارة دناءة النسب ووضاعته بسبب انتمائه إلى أمة سوداء وحبشية ، ونلمح في شعره إشارات إلى مواقف رفضٍ سلبي ، لتقاليد المجتمع الذي يفرض على الشاعر هذا الحرمان العاطفي ، وجعلته دائم البحث عن تلك المبررات لذلك اللون الأسود «ويعمد عنترة إلى إضفاء قيمة السواد ، وكأنه يحاول الفخر بلون السواد ، ويحاول الفخر بكونه عبداً ، ويحاول أن يوسع من دلالته الضيقة المقتصرة على الإنسان إلى أبعد من ذلك ، فالمسك أسود اللون ولكن لا يقلل السواد من أهميته وقيمته»[3] فيقول:

لَـئِنْ أَكُ أَسْـوَدَاً فالمِسْـكُ لَـوْنِي وَمَالسَّـوَادِ جِلْـدِي مِـنْ دَوَاءِ

وَلَكِـنْ تَبْعَـدُ الفَحْشَـاءُ عَنِّـي كَبُعْـدِ الأَرْضِ عَـنْ جَـوِّ السَّـمَاءِ[4]

ويعلّق الأستاذ الدكتور كريم الوائلي على هذين البيتين بقوله «إن عنترة بن شداد بهذا يضعك أمام معادل موضوعي يتقابل فيه عنترة بلونه الأسود بالمسك ذي اللون الأسود ، أي أن اللون لا يحدد قيمة الإنسان ، وإنّما جوهره هو الذي يحدد قيمته وأهميته»[5] ، ويحاول في أبيات أخرى أنَ يُعلي من شأن هذا اللون ، بأن يقارن بين العبد الفرد الذي يتصدى في الحرب لألف حر من الأحرار فيقول:

أَنَـا العَبْـدُ الـذِي خبِّـرت عَنْـه يلاقِـي فِـي الكَرِيهَـةِ أَلْـفَ حَـرِ

فهو هنا يقلل من شأن الأبيض أو الحر حيث يبرز نفسه في قوته وصلابته ـ وهو العبد الأسود ـ يضاهي ألف رجل حر وهو نوع من المبالغة ، ولم يعترف في بداية البيت بالعبودية إلا ليعود سريعاً ليؤكد بأنه

(1) إحسان سركيس ، مدخل إلى الأدب الجاهلي ، ص 189 .
(2) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 189 .
(3) كريم الوائلي ، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية ، ص 126 .
(4) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 8 .
(5) كريم الوائلي ، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية ، ص 127 ، 128 .

يلاقي ألف حر من السادة الأحرار ويتغلب عليهم ، لأنه تميز عنهم بقلبه الذي خلق أشد قوة من الحديد فيقول أيضاً:

خلِقت مِنَ الحَدِيدِ أشَدَّ قلباً فكيْفَ أخَاف مِنْ بِيضٍ وَسمْرِ
وَأبْطِش بِالكمِيِّ وَلا أبَالي وَأعْلو إلى السِّمَاكِ بِكلِّ فخْرِ(1)

يصور عنترة خصمه في أقوى صوره وأنه شاكي السلاح متدرعاً به ، ورغم ذلك فهو يصور بطشه به ويبرر عدم مبالاته بما تدرع به من أنواع السلاح والدروع ، وتراه يقول مفتخراً فِي رجزه:

أنَا الهَجِين عَنْتَره كلَّ إمْرِئٍ يَحْمِى حِرَهْ
أسْوَدَه وَأحْمَره وَالوَارِدَات مشْفرَه(2)

ويسعى عنترة إلى التقليل من وقع تلك النظرة الموجهة إلى اللون الأسود التي تنم عن جهالة صاحبها فيقول:

يعِيبونَ لونِى بِالسّوَادِ جَهَالةً وَلوْلا سَوَاد الليْلِ مَاطلعَ الفجر
وَإذَا كانَ لونِى أسْوَداً فخَصَائِلي بَيَاض وَمِنْ كفَىّ يَستَنْزِل القطر(3)

والحق أن عنترة كان ذا نفس أبية ، شديدة التطلع للسيادة ، قوي الجسم والبنية « ولكن لونه الأسود بقي شاهداً على عبوديته واعتلال نسبه ، وبقيت أمه زبيبة أمةً لا حرة ، أمَّ ولد ، لا أمَّ بنين ، سوداء لا بيضاء ، حبشية ، لا عربية حجةً للناس على أنه هجين أخواله ، الزنوج ، فمن أين له أن يمحوَ سواد لونه ، أو أن يجعل أمه من ربات الحجال ، ولونه لا ينفصل وأمه لا تتحرّر . والعرب لا يتسامحون في النسب وكرم الأمومة والخؤولة . فقد جعلوا له ألقاباً تذكّره أبداً بسواده وأمه فهو الغراب ، وأسود بني عبس ، وابن السوداء ، وابن زبيبه ، فما عليه إلا أن يقبل هذه الألقاب ، ويدفع عن لونه وأمه ، ليُخرس ألسنة المعيّرين »(4) ، والحق أن شعر عنترة في أغلبه لا يكاد يخلو من الدلالة على هذه العقدة ، التي عانى منها كثيراً في حياته ، وهي عقدة النقص باللون ، وسأورد شواهد من شعره تدل على صحة

(1) بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 73 .
(2) ص 74 .
(3) ص 72 .
(4) البستاني ، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، ص 170 .

ماذكر ، غير التي أوردتها سابقاً فمنها قولـه:

وَمَاعَــابَ الزّمَــان عَلــيّ لــوْنِي   وَلا حَــط السّــواد رَفِيــعَ قَــدْرِي
إِذَا ذكِــرَ الفخَــار بِــأرْض قَــومٍ   فضَرب السّيْفِ فِـي الهَيْجَـاءِ فخْـرِى
سَـمَوْت إلـى العـلا وَعَلـوت حَتَـى   رَأيْت النّجْمَ تَحْتِـى وَهْـوْ يَجْـرِي(1)

وعـنترة مـن الـذين يفضـلون أن يتمتـع الرجـل بالخصـال الحميـدة والمكانة السامية بين قومه ، فالرجل لا يشـرف بلونـه أو بجسـمه أو بمالـه إنما هي مظاهر لا قيمة لها في نظره ، وقيمة الرجل ومكانته تقاس بصـدقه وأمانته وشدة بأسه ، وصلابته ، وحسن تصرفه ، وحسن قيادته في الحروب وشجاعته فهو يقـول:

سَوَادِي بَيَـاضٌ حِينَ تَبْـدو شَـمَائِلي   وَفعْلِي عَلى الأَنْسَابِ يَزْهو وَيَفخـر(2)

فإذا كان عنترة قد عانى وقاسى جراء لونه ، وهي العقدة الـتي رافقتـه طيلة حياته ، فإنه عـانى مـن عقـدة أخـرى ، تفشـت في شـعره ألفـاظ دالـة عليها ، وهي العبودية:

وَأرْضَــىَ بِالإِهَانَــةِ مَــعْ أنَــاسٍ   أراعِــيهمْ وَلَــو قتْلِــي أحَلَــوا
وَأصْــبر لِلحَبِيــبِ وَإنْ جَفَــانِي   وَلَــمْ أتْــرك هَــوَاه وَلسْــت أسْـلو
عَسَــىَ الأَيّــام تــنْعِمْ لِــي بِقــرْبٍ   وَبَعْـدَ الهَجْـرِ مـرَّ العَـيْشِ يَحْلـو(3)

يبرز عنترة ما يلقاه بشكل صـريح مـن قومـه ، مـن عـذاب وإبعـاد ، وإهانة واستبعاد ، ففي الأبيات السابقة يـورد عـنترة عـدة ألفـاظ تـوحي في ظاهرها عدم رضاه الداخلي «والنفسي» بما يلاقيه من إهانات وإذلال ، فهو يقول «وَأَرْضَى» ويعـني أنـه أرغـم نفسـه علـى الرضـا بالإهانـة والإذلال ، ويساند هذا اللفظ في آداء معناه ألفاظ أخرى من بينهـا: أراعـيهم ــ أصـبر ـ لست أسلو ـ عسى ـ بعد الهجر ـ فهذه ألفاظ تدل على الاسـتكانة وتحمّـل الأذى والإهانة ، ومن المسلّم به «إنَّ لبعض الأصـوات قـدرةً علـى التكيّـف والتوافق مع ظلال المشاعر ، في أدق حالاتهـا ، وتـرتبط الظِّـلال المختلفـة

(1) بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 66 .
(2) نفسه:
(3) نفسه: ص 106 .

للأصوات بإتجاه الشعور ، وهذا يُثري اللغة ثراء لا حدود له ، ولا تترك تلك الظلال بإعتبارها عناصر ، ذات قيم أسلوبية في العمل الفني اللغوي ــ تحت حكم الإلقاء ، وإنما ترتبط إرتباطاً غير مباشر بالمضمون الشعوري المتشكِّل »(1) .

ومما لاشك فيه أن عنترة صور رضاءه بالإهانة في سبيل أن يحصل على القليل من التقدير والاحترام ، وفي الأبيات الثلاثة السابقة نراه يعبر عن حبه وشدة إخلاصه لقومه وإن أحلُّوا قتله ، وجعل حبه لعبلة يعادل محبته لقومه ، ويبرر ذلك بأنه يرجو القرب من القوم الذين هم قومه ، والقرب من عبلة التي هي حبيبته ويظل هاجس عنترة الوحيد هو اللون الأسود:

وَمَنْ قَالَ إِنِّي أسودٌ لِيَعِيبَنِي أريهِ بِفعِلِي أَنَّه أكْذَبَ النَاسِ(2)

المعيار الذي يقاس ويوزن به الرجال هو معيار الشجاعة والبطولة والشهامة والكرامة وهو ما أراد عنترة التأكيد عليه ، ثم إن عنترة جعل من اللون الأسود الذي ميزه والعبودية التي انْتبذَ بسببها من مجتمعه جعلهما صفتي فخر وعز فيسندهما لنفسه معبراً عن ذاته بضمير المتكلّم « إني » ، وما كان ذلك منه إلا لكثرة ما عُيِّر بهاتين الصفتين اللتين هما صفتا ذلِّ ومهانة في نظر المجتمع ، ويضيف إلى ذلك نسبه العليل الذي يعاني منه طول حياته ، وظل يلاحقه ويقلل من قيمته ، ويحطُّ من شأنه ، والذي أراد التعويض عنه بسيفه ورمحه ، ومما يؤكد ذلك ما رواه صاحب الأغاني من « أن عبساً أغاروا على طيء فأصابوا نَعَماً فلما أرادوا القسمة ، قالوا لعنترة: لا نقسم لك نصيباً مثل أنصبائنا لأنك عبد ، فلما طال الخطب بينهم كرَّت عليهم طيء فاعتزلهم عنترة ، وقال: دونكم القوم فإنكم عددهم »(3) ولذلك نجده يقول: ـ

وَأَنَا الأَسْوَدَ وَالعَبْدَ الذِي يَقصِدَ الخَيْلَ إذا النّقع ارْتَفَعْ
نِسْبَتِي سَيْفِي وَرمْحِي وَهَمَا يؤْنِسَانِي كلمَا اشْتَّدّ الفَزَعْ(4)

مزاوجاً بين السواد والعبودية لأنه يظن بل يعتقد أن العبودية سببها

(1) محمد العبد ، إبداع الدلالة ، ص 14 .
(2) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 75 .
(3) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني: 8 / 237 .
(4) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 80 .

السواد ، وفي كثير من الأحيان يجعلها محل فخر وشرف محاولاً تعزية نفسه بذلك ، ويحاول أيضاً التعويض عما فقده بسببهما ، وفي كثير من الأحيان أيضاً يحاول المزاوجة بين السيف والرمح ، ويعتبرهما محل الشرف والسيادة ، وهما اللذان يَشرف بهما الرجل ، وتعلو مراتبه «وقد اضطر عنترة مراراً أن يدافع عن شطره الحبشي بسلاحه ، دفاعه عنه بشعره ، ليردّ تحامل المعيرين ، ولا سيما أبناء قومه الذين يأبون الاعتراف بتقدمه عليهم لأنه ابن السوداء»(1) .

وكثيرة هي الأبيات التي يذكر فيها سواده وعبوديته ، ويبدأ حديثه بضمير المتكلم مفتخراً بنفسه ، وما كان ذلك منه إلا رداً على شاتمي عرضه ، الذين يقللون من مكانته ومقامه فنراه يقول مؤكداً علوَّ همته وسمو نفسه: ـ

أَنَا العَبْدُ الذِي سَعْدِي وَجَدّي يَفُوقُ عَلَى السَّهَا فِي الارْتِفَاعِ
سَمَوْتُ إِلَى عَنَانِ المَجْدِ حَتّى عَلَوْتُ وَلَمْ أَجِدْ فِي الجوِّ سَاعِي
وَآخِر رامٍ أَنْ يَسْعَى كَسَعْيِي وَجَدَّ بِجِدٍّ يَبْغِي اتّبَاعِي(2)

ويقول:

أَنَا العَبْدُ الذِي خبِّرْتَ عَنْهُ وَقَدْ عَايَنْتَنِي فَدَعِ السّمَاعَا(3)

أكد العبودية لنفسه مفتخراً أمام من لا يعلمه ولم يره من قبل فيقول في سياق الفخر والاعتداد بالنفس «أنا العبد» وقد استعمل أداتين من الأدوات المؤكدة «أنا» «أل التعريف» للكشف عن هذه البطولة المتأصلة فيه فهو عبد ولكنه ليس كبقية العبيد الذين غلبت عليهم الذلة والمسكنة ، ويكرر العبارة في موطن آخر فيقول:

أَنَا العَبْدُ الذِي يَلقَى المَنَايَا غَدَاةَ الرَّوْعِ لا يَخْشَى المِحَاقَا(4)

ثم بعد هذا الاعتراف يسعى إلى التعويض عن هذا النقص الذي لحقه بسبب سواد اللون بأن ينتقي العبارات الدالة على رفعة المكانة والمنزلة

(1) بطرس البستاني ، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، ص 171 .
(2) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 81 .
(3) نفسه ، ص 84 .
(4) نفسه ، ص 94 .

ويصيح بأعلى صوته متحدياً

إنْ كنْت فِي عَددِ العَبِيدِ فهِمّتِي فَوْقَ الثّرّيا والسِّماكِ الأعْزَلِ
أوْ أنْكرَتْ فرْسَان عَبْسٍ نِسْبَتِي فسِنَانُ رمْحِي والحسَامُ يقرّلِي
وَبِذَبْلِي وَمهّنَدِي نِلتُ العَلا لا بِالقرَابَةِ وَالعَدِيدِ الأجْزَلِ(1)

ويقول: ـ

أنَا العَبْدُ الذِي خيِّرْت عَنْه رَعَيْت جِمَالَ قوْمِي مِنْ فِطامِي
أروح من الصّبَاحِ إلى مَغِيبٍ وَأرْقدُ بَيْنَ أطنَابِ الخِيَامِ(2)

يخاطب الذين سمعوا عن قوته وسطوته ، فيبرز لهم انه لم يرتفع عن أعمال العبيد أو أنه يأنف هذه المعاملة التي يعامل بها العبيد ، ولكنه يتمتع متميزاً عنهم بعلو همة يفقدها كثير ممن كان مثله فيقول مفتخراً بنسبه من ناحية والده شداد:

أنَا العبدُ الذِي بِدِيَارِ عَبْسٍ رِبِيتُ بِعِزّةِ النّفسِ الأبيّةِ(3)

وما ذلك إلا محاولة منه في كثير من شعره أن للتخفيف من وطأة النقص باللون والتقليل من شأنه ، الذي جناه شداد عليه جراء زواجه من تلك الأمة السوداء «زبيبة» «ولم يكن العربي يعرف لهؤلاء الإماء مساواة في الحقوق ، ولا مساواة في المعاملة . . . وكان أسوأ هؤلاء الهجناء حظاً ، وأوضعهم منزلة اجتماعية أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم ، فقد كانوا سبة يعيّر بهم آباؤهم»(4).

ولهذا السبب لم يعترف شداد بعنترة ، واستبعده ولقد أكّدَ أبو الفرج أن شداداً طلب من عنترة الكر على طئ ، فأبى عنترة وقال قولته المشهورة «أو يحسن العبد الكرَّ: فقال له أبوه: العبد غيرك ، فاعترف به ، فكرَّ واستنقذ النَّعَم وجعل يقول:

(1) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 112 .
(2) نفسه ، ص 138 .
(3) نفسه ، ص 157 .
(4) عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ص 94 ـ 1982 .

أَنَــــا الهَجِـــــين عَنْتَـــــرَةَ   كُـــلُّ امِـــرِئٍ يَحْمَـــى جِـــرَهُ[1]

وظلَّ اللون الأسود هاجس عنترة الدائم الذي يشعر به ، وعقدته التي تشغل فكره دائماً ، فلا ينطلق لسانه في الحديث حتى يجد نفسه يتحدث عن السواد والعبودية ونسبه الذي نغَّص عليه حياته كغيره من أبناء الإماء السوداوات الذين خرجوا « إلى الحياة وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذي يبغضه مجتمعهم ، والذي لابدَ لهم فيه ، ولا خروج لهم منه فإذا به يحول منذ البدء دون أ ، يعترف بهم آباؤهم ، ثم إذا به بعد ذلك يحول دون أن يشاركوا في الحياة الاجتماعية كما يشارك غيرهم ، ولا يهيئ لهم إلا فرصة ضيقة للحياة على هامش المجتمع حياة ذليلة محتقرة يخدمون فيها سادتهم »[2].

ولعنترة ـ كما أسلفت ـ كثير من الشعر الذي يعبر فيه عن عقدة اللون التي رافقت حياته ، وظل يحاول التقليل من وطأتها على نفسه ، فتارة يقارن بينه وبين الدرّ كقوله:

وَإِنْ يَعِيبـوا سَـوَاداً قـدْ كسِـيت بِـهِ   فالدَّرَّ يَسْتره ثَوْبٌ مِـنَ الصَّـدَفِ[3]

وتارةً يفخر بنسبه من جهة أبيه محاولاً التعويض عن نسبه من جهة أمه بالسيف والرمح وشجاعته وفروسيته فيقول:

إِنِّـى امْـرؤٌ مِـنْ خَيْـرِ عَـبْسٍ مَنْصِـباً   شَطرِي وَأَحْمِي سَائِرِى بِالمنْصَـلِ[4]

ويقول أحد الباحثين « الحقّ أن المجتمع العنصري لم يكن يرحم أحاسيس الشاعر ، ولم يكن يأبه لصرخاته المستمرة ، وظل على عناده مميزاً الأسود عنه »[5] أفرده المجتمع ، ولذا فهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

إنْ كنْـت فِـي عَـدَدِ العَبِيـدِ فهمَّتِـي   فَــوْقَ الثَّرَيَّــا والسِّــمَاكِ الأعْــزَلِ

أوْ انْكَــرَتْ فرســان عَـبْسٍ نِسْـبَتِي   فسِنَان رمْحِـي والحسَـام يقِـرُّ لِـي

وَبِــذَابِلِي وَمهَنَّــدِي نِلــت العــلا   لا بِالقرَابَــةِ وَالعَدِيـــدِ الأجْــزَلِ

(1) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني: 8 / 237 .
(2) عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص 95 .
(3) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 88 .
(4) نفسه ، ص 98 .
(5) عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص 111 .

إلى أن قال:

وَأَنَــا ابْــن سَــوْدَاءَ الجَـبِينِ كأَنَّهَـا   ضَبْعٌ تَرَعْـرَعَ فِـي رسـوم المَنْـزِلِ(1)

ولقد تمادى عنترة حينما جعل السواد شيئاً مقدساً محترماً لقوته وصلابته فهو يعبر عن جواده الأدهم القوي الذي يشق سواد الليل ، يستطيع به أن ينجو من الموت ، وهو مستعد للموت دونه فيقول: ـ

أدْهَــمٌ يَصْـدَعَ الـدُّجَى بِسَـوَادٍ   بَـيْنَ عَيْنَيْـهِ غـرَّةٌ كـالهِلالِ
يَفتَـدِيني بِنَفسِـهِ وَأَفدِّيـهِ   بِنَفسِـي يَـوْمَ القِتَـال وَمَـالِي(2)

فالشاعر يرفع من قيمة ذلك الجواد «الأسود» ويعلي من شأنه ويطرح عليه مسحة من الجمال بذكره لبعض الصفات التي يتميز بها عن غيره من فصيلته ، وفي الحقيقة إن الشاعر عندما يذكر ذلك الجواد إنّما أراد نفسه وإظهار قيمة الجواد الأسود ، إنما هو إظهار لقيمة الشاعر ، وإبراز لقيمة من يمتاز باللون الأسود سواء من البشر أو البهائم فيرسم صورة رائعة من السواد الذي نظم في عقد واحد وسلسل في نظام واحد تمثله الصورة المرسومة من الادهم الدجى سواد بين عينيه يظهر ذلك السواد الحالك تلك العزة التي رسمها بين عيني الجواد تلمع كالهلاك ثم انظر إليه وهو يفتخر بسواد لونه حينما يتحدث عن الحرب فيقول:

طفاهَـا أسْـوَدٌ مِـنْ آلِ عَـبْسٍ   بِـأَبْيَضَ صَـارِمٍ حَسَـن الصِّـقالِ(3)

ويفتخر بسواد الرمح ويلوح من خلال سواده السنان الأبيض اللامع فيقول:

وَأَسْـمَر كلمَـا رَفعَتْـه كفَـي   يَلـوح سَـنَانه مِثْـلَ الهِـلالِ(4)

والملاحظ على الشاعر أنه يسخر كل ما في الطبيعة من حوله لخدمة اللون الأسود لإظهار مزاياه وصفاته الحسنة فيها ، فالفرس يضفي عليه جملة من الصفات التي تزيد من جماله في كونه وفياً لصاحبه ، ولا يخل بعهده معه ، فهو يفتدي صاحبه بنفسه فسلوكه سلوك لا يقوم به من الرجال

(1) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 111 .
(2) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 112 .
(3) نفسه ، 113 .
(4) نفسه ، 113 .

إلا من كان كامل الرجولة ، ثم يأتي في البيت الذي يليه فيتحدث عن نفسه ، مبرزاً السواد الذي تميّز به عن قومه ، وذكر سيطرته على زمام الأمر ، بأنه طفى الحرب وهزم الأعداء ، وكانت أداته في ذلك السيف الأبيض ، والرمح الأسود وبيّن أداة التنفيذ فيه وهو سنانه التي وصفها بالهلال ، إذن فإنّ عنترة أراد أن يبرز سمة من السمات التي يجب أن تسود مجتمعه ، وهي سمة التكامل والتآلف والترابط ، بين اللون الأسود ، واللون الأبيض ، مسخّراً له كل ما أتيح له من الطبيعة:

يقدِّمه فتَى مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ   أبوه وأمُّه مِنْ آلِ حَامِ
عَجوزٌ مِنْ بَنِي حَامِ بنَ نوحٍ   كأنَّ جَبِينَهَا حَجَرُ المقَامِ(1)

اول في هذين البيتين أن يقارب ويجمع بين والده ووالدته في أنهما ينحدران من حام بن نوح ثم يغدق على والدته صفات خلقية تحسن من منظرها وتجمل هيئتها ثم يقول:

أحِبُّ بَنِي عَبْسٍ وَلَوْ هَدَروا دَمِي   لأجْلِكِ يَابِنْتَ السَّرَاةِ الأكَارِمِ
وَأحْمِلِ ثِقلَ الضَّيْمِ والضَّيْمِ جَائِرٌ   وَأظهِرُ أنِّى ظَالِمٌ وَابْنُ ظَالمِ(2)

ويقول:

وَإنْ عَابَتْ سَوَادِي فهْوَ فخْرِي   لأنِّى فارِسٌ مِنْ نَسْلِ حَامِ(3)

ويقول:

شَبِيه الليْلِ لَونِي غيْرَ أنِّي   بِفعْلِي مِنْ بَيَاضِ الصَّبْحِ أسْنَى
جَوَادِي نِسْبَتِي وَأبِي وَأمِّي   حسَامِي والسِّنَان إذَا انْتَسَبْنَا(4)

فمن خلال هذه الأبيات يتضح لنا أن عنترة ، أراد أن يدحض النظرة السائدة في المجتمع الجاهلي وهي الفخر بالنسبة والأصل ـ تلك التي عانى منها كثيراً ـ وأراد الشاعر أن يطرح بديلاً جديداً يراه الأنسب والأقوم ، وهو قياس المرء بما يقدّمه من خصال حميدة ، وبطولات فذة ، وبما يقدمه

(1) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 131 .
(2) نفسه ، ص 134 .
(3) نفسه ، ص 138 .
(4) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 145 .

الشخص في ميادين القتال ، ورد كيد الظالمين:

وَمَــنْ قــالَ إنِّــي سَــيّدٌ وَابْــن سَــيِّدٍ   فسَيْفِي وَهَذَا الرّمْح عَمِّـي وَخَالِيَـا(1)

ومن الجدير بالذكر أنّ عنترة عبر في شعره عن الحالة النفسية ، القلقة المضطربة بشكل واضح وجليّ ، وأعتقد أن ما سقته من أبيات فيما مضى ، وما سنسوقه ، لدليل قاطع ، على أن هدف عنترة بنفسه المضطربة البحث «عن الضمان العاطفي في إحساسه بالإنتماء إلى الجماعة ، والصورة الشعرية التي ينتجها هي من وعي المجتمع وتراثه ومعتقداته»(2) .

وهذه القصيدة من الوافر والقافية من المتواتر ، دليل على هذا القول وهي في مجموعها تسعة عشر بيتاً ، وأحسب من وجهة نظري أنها تمثل جانباً من تلك المأساة التي كان يعاني منها عنترة بن شداد في حياته فهو الذي يقول: ـ

عَــذَابكِ يَابْنَــة السَّــادَاتِ سَــهْلٌ   وَجَــور أَبِيــكِ إنْصَــافٌ وَعَــدْلُ
فجَـوروا واطلبُـوا قتْلِـي وَظلمِـي   وَتَعْــــذِيبِي فَـــإنِّي لا أمَــــلُّ
وَلا أَسْــلو وَلا أشْــفِي الأعَــادِي   فسَــادَاتِي لهــم فخْــرٌ وَفضْــلُ
أنَــاسٌ أنْزَلونَــا فِــي مَكَــانٍ   مِـنَ العَلَيَـاءِ فـوق الـنجم يَعْلُـو
أنَـاسٌ جَـاروا عَـدَلنَا في هـواهم   وَإنْ عَـــزُّوا لِعِـــزَّتِهِمْ نَـــذِلُّ
وَكَيْـفَ يَكـون لـي عَـزْمٌ وَجِسْمِي   تَــرَاه قَــدْ بَقَــى مِنْــه الأقَــلُّ
فيَــا طَيْــرَ الأرَاكِ بِحَــقِّ رَبٍّ   بَـرَاكَ ، عَسَـاكَ تَعْلَـم أيْـنَ حَلُّـوا
وَتطلِـق عَاشِـقاً مِـنْ أسْـرِ قَـوْمٍ   لَــه فِــي حُــبِّهِمْ أسْــرٌ وغُــلُّ
ينَـادونِي وَخَيْـل المَـوتِ تَجْـرِي   مَحَلّــكَ لا يعَادِلـــه مَحَـــلٌّ
وَقَــدْ أمْسَــوا يعِيبــونِي بِــأمِّي   وَلَــوْنِي كلمَــا عَقَــدوا وَحَلُّــوا
لقدْ هَانَـتْ صُـروف الـدَّهْرِ عِنْـدِي   وَهَانَــتْ أهْلُــه عِنْــدِي وَقَلُّــوا

(1) نفسه ، ص 160 .
(2) أنور أبو سويلم ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص 11 .

وَلِـي فِـي كـلِّ مَعْرَكـةٍ حَـدِيثٌ إذَا سَـمِعَتْ بِـهِ الأبطَـال ذَلّـوا
قطعْـت رِقـابَهمْ وَأسَـرْت مِـنْهمْ وَهـمْ فِـي عِظَـمِ جَمْعِهِـم اسْتَقلّـوا
وَأحْصَـنْت النِّسَـاءَ بِحَـدِّ سَـيْفِي وَأعْـدَائِي لِعِظَـمِ الخَـوْفِ قـلّوا
أثِـير عَجَاجَهَـا وَالخَيْـل تَجْـرِي ثِقـالاً بِـالفوَارِسِ لا تَمَـلّ
وَأرْضَـى بِالإهَانَـةِ مَـعْ أنَـاسٍ أرَاعِـيهِمْ وَلَـوْ قتْلِـي أحَـلّوا
وَأصْـبر لِلحَبِيـبِ وَإنْ جَفـانِي وَلَـمْ أتـرك هَـوَاه وَلسْـت أسْـلو
عَسَـى الأيَّـام تـنْعِمْ لِـي بِقـرْبٍ وَبَعْدَ الهَجْـرِ مـرُّ العَـيْشِ يَحْلـو[1]

إن قراءة متأنية ومتعمقة لهذه الأبيات تتيح لنا تحديد رؤية واضحة ، أساسها علاقة التضاد ، الذي يكاد يشمل جميع الأبيات ، فالشاعر يبدأ أبياته ويستهلها بما يُشغل نفسه ويسيطر عليها ، معرضاً عما ألفناه في الشعر الجاهلي ، من الوقوف على الأطلال ، وذكر الحبيبة ووصف الناقة والرحلة ، فالشاعر يضرب صفحاً عن ذلك ويدخل إلى ما يخيّم على نفسه ، مباشرة دون مقدّمات ، والملاحظ أن عنترة لم يذكر عبلة بالاسم على الرغم من أنه يبدأ قصائده بذكرها ، وحبه لها ، وحنينه إليها غالباً ، ولكنه أشار إليها هنا بضمير المخاطبة ، ومنيرها بأنها « ابنة السادة » ، أراد أن يبرز الفارق الطبقي بينه وبينها ، وهو فارق فرضه المجتمع ، ووصف العذاب من قبل المحبوبة « بالسهولة ليقارن ـ فيما بعد ـ بينه وجور أبيها ، والجور مجاوزة الحد في الظلم ، فهو راضي بالإهانة والظلم في سبيلها ، وإلى درجة أنه اعتبر جور الوالد في حقه إنصافاً وعدلاً ، وقد بالغ في الاستكانة والرضى بالذل حتى جعل من نفسه مغرماً ، بعذابهم .

ومن الجدير بالإشارة أن عنترة بدأ قصيدته هذه بخطاب المحبوبة المعرضة عنه التي تأبى التكرم ، والمنَّ عليه ، ولو بنظرة حب وقرب ، وود ، ولا شك أنه خاطبها بضمير المخاطب « الكاف » إعلاءً لشأنها ومكانتها وليشعرها بأنها في مكانة عالية ، ثم دلل على ذلك بقوله « يا ابنة السادات » وهي إشارة خفية إلى ما تعانيه نفسيته من انكسار وإذلال ، كان سببه العبودية ، وهو يريد أن يصل إلى النتيجة التي أكدها فيما بعد بكلمة

(1) عنترة بن شداد ، ديوان عنترة بن شداد ، ص 105 .

« جور » والجور كما ذكرت آنفاً هو مجاوزة الحد في الظلم .

وفي هذه الافتتاحية التي لا تتعدى البيتين الأول والثاني ، يريد أن يؤكد حبه لها ويقر بأنه حب من جانب واحد ، فهو المضطهد المغبون ، فلا أمل له في الحرية ولا في زواجه من عبلة واعتباره أحد السادة الذين تعتمد عليهم قبيلة عبس فهذه أمور لا يمكن بحال تحقيقها إلا بمعجزة ، ولهذه الأسباب يعتبر كل مالحقه من عبلة وقومها تصرفاً لهم الحق فيه بل يعتبره إنصافاً وعدلاً ، ولعلنا نستطيع القول إنَّ عنترة وجد في تعذيبهم له متعة ممتدة في فنه وأسلوب حياته وإن راح ضحيته في النهاية .

ويتطلب هذا منه أن يتنازل عن كثير من الأنفة والكبرياء والإباء ، وقد عبَّر عن ذلك بقوله « فساداتي لهم فخر وفضل » البيت ، ولعل ما يؤكد ذلك هو قوله « وإن عزّوا لعزتهم نذلُّ » البيت .

إن التناقض الذي يحكم القصيدة من بدايتها إلى نهايتها دليل على ذلك التناقض الواضح بين نفسية عنترة الأبية وما فرضه عليه واقعه من ذلة ومهانة فهو يشعر بضيق نفسي كبير:

وَأَرْضَى بِالأِهَانَةِ مَعَ أُنَاسٍ   أُرَاعِيهم وَلَو قَتْلِي أَحَلّوا

فالشاعر لم ينل « من مجتمعه إلا القسوة والهوان والخدمة المتواصلة ، قبل حريته وبعدها ، لقد ظل في السلم ابن زبيبة ، وفيالحرب ابن الأكرمين »(1) .

ويصور الشاعر أخيراً مدى ظلم القبيلة له ورضاه بتلك المعاملة المشينة التي يعاملونه بها « فهو إذا أحس بأن هذا العار سيظل يلحق به ما عاش ، كان لا بد له إذا من التصدي ، والفخر بالمزايا التي ينتقدها المجتمع نفسها ، إنه نوع من العصيان والخروج المبطن على القبيلة ، إنه يضرب عرض الحائط بكل القيم التي ناضل هو نفسه للحصول عليها »(2) .

إن نظرة متأنية في النص ، تُظْهِرُ قسمين منَ التضاد الذي يعم النص ، ويُعطيه انتضاماً معيناً .

1 ـ فالقسم الأول: خاص بذكر العذاب والجور الذي لحقه جراء

(1) عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص 106 ومابعدها .
(2) عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص 107 .

حبه لعبلة واستكانته لقومه « من البيت الأول إلى البيت السادس» فالشاعر في هذه الأبيات يعتمد التضاد وسيلة من وسائل التعبير عن المشاعر النفسية .

ولاشك أن الصراع النفسي الذي مرّ به عنترة هو الذي ولَّد هذا التضاد ، الذي ساد هذا القسم ، فالتضاد بين تعذيب الحب له .

ـ وجود الأب (والد عبلة) وكون هذا إنصافاً وعدلاً ، فلا يكون من جار عادلاً ، لأن الجور نقيض العدل والإنصاف ، والتضاد يشمل كل البيت ، كذلك التضاد ، أي بين الشطر الأول والثاني من كون عذابها سهلاً ، وجور الأب المنصف العادل .

ثم إن التناقض يظهر بين البيت الأول والبيت الثاني حيث إن البيت الثاني بدأه بما ختم به البيت الأول ، وبدأ البيت الأول بما ختم به البيت الثاني .

ـ فصاحب الجور ، بالقتل والظلم ، وجمع التعذيب بعدم الملل .

ويبرز التناقض أيضاً ـ لا أسلو ـ لا أشفى الأعادى ، والتناقض هنا له دلالة نفسية يصدر عنها الشاعر وهي عدم السلو لمفارقته المكانة المرموقة التي يسعى لتحقيقها لنفسه ، فهو يعتبر نفسه عليلاً سقيماً ما دام يحس بالعبودية ، وفي البيت الرابع يبرز التناقض بين قوله ـ أنزلونا ـ العلياء و« في مكان ـ فوق النجم» وهو رمز لتلك المكانة التي يطلب تحقيقها لنفسه بين قومه وكذلك التناقض بين قوله ـ جارو ـ عدلنا وقوله عزّوا ، ونذل .

والحق إن البيتين السابع والثامن نابيان عن السياق ، بحيث يمكن إزالتهما ويمكن قراءة القصيدة بدونهما ولا يختل المعنى ، فلا رابط لهما ببقية الأبيات ، هما:

فيَـا طيْـرَ الأرَاكِ بِحَـقِّ رَبِّ   بَـرَاكَ عَسَـاكَ تَعْلَـم أيْـنَ حَلَـوا
وَتَطلِـقَ عَاشِـقاً مِـنْ أسْـرِ قَـوْمٍ   لَـهُ فِـي جَهَـنَّم أسْـرَ وَغَـل

2 ـ أما القسم الثاني: فيفتتح الشاعر القسم الثاني بالبيت التاسع ليسجل انعطافاً أساسياً ، في تنامى التعبير النظمي للنص ، ويعتمد الشاعر فيه النظام الذي اعتمده في القسم الأول ، فترى التناقص سمة بارزة فيه أيضاً كما في: محلك ـ لايعادله محل ـ عقدوا وحلوا .

إن ظاهرة هذه الأبيات تحكمها ثنائية بين الجوهر والعرضي أو الثابت والمتغير الثابت هو تلك العادات والأعراف التي تعودها وتعارف عليها الناس في الجاهلية من احتقار السادة للعبيد وعدم الرفع من مكانتهم أو احترامهم أو مصاهرتهم وإن كانوا مثل عنترة في قوته وفروسيته ، والمتغير هو مواقفهم ومعاملتهم له إبان لقاء الفرسان والأبطال من الأعداء الذين أغاروا عليهم وقامت الحروب والثارات بينهم فاحتاجوا إلى عنترة وفروسيته حتى أنهم نصبوه قائداً لهم وسيداً عليهم « محلك لا يعادله محل » وتلاحظ من خلال هذه الجملة وميض تلك النفسية المأزومة ، وذلك التناقض الذي انطوت عليه سريرته سببه الواقع المرير الذي يعيشه وقد جره إليه ذلك اللون الأسود الذي يلاحقه وسبب له هذه العقدة « ولوني كلما عقدوا حلوا » وهي إشارة منه إلى ذلك الإبعاد له من قبل السادة فالعقد والحل لهم وحدهم ، أما الشاعر فإنه مبعد بسبب سواد اللون الذي يلاحقه طول حياته ، ولم ينتبهوا إليه أو ينادوه إلا في أحلك الظروف وأشدها قسوة ، وهو موقف يكرهه الأبطال والشجعان من الناس .

ثم يشير إلى قيمة إنسانية كبيرة ولا تتحقق إلا بفضل الرجال الذين قل نظراءهم في القبيلة من أمثال عنترة الفارس المغوار وهذه القيمة تتمثل في إحصان النساء ويسند هذا الفعل لنفسه بإسناده إلى تاء المتكلم ثم يرسم صورة لذلك التناقض بين كثرة الأعداد ثم ما يلبثوا حتى يصبحوا قلة بسبب الخوف إما بهربهم من ساحات الوغى أو بقتله لهم ، ثم يصور نشوة الفرح بالنصر المؤزر برجوعه إلى القبيلة في حين ولى الأعداء وخيولهم من ثقل فوارسها تجر أذيال الهزيمة والخيبة دون أن تحقق شيئاً مما جاءت من أجله ، ومع ذلك فإن هذا البطل الهمام المنتصر يرضى بالإهانة ويمكث على الذلة بين أناس أهانوه ، ومع ذلك فهو باق معهم ولو تآمروا على قتله واستحلوه ثم يحترس بأن ذلك ليس سجية منه وإنما هو يصبر نفسه للحبيب لعل قادم الأيام يعطف عليه بالقرب من الأحباب فينعم بمتعة اللقاء ويحلو مرير العيش بعد طول مرارة .

مصادر البحث ومراجعه

- إبراهيم الأبياري: ديوان عنترة ، مصطفى البابي الحلبي د . ت .
- ابن خِلّكان: وفيات الأعيان ، المعارف د . ت .
- ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر بيروت د . ت . بطرس البستان: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، دار صادر ط 8 بيروت 1962
- أبو الفرج الأصفهاني الأغاني: دار الكتاب اللبناني بيروت ط 4 1979 .
- إحسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي ، دار الطليعة بيروت 1979 .
- الجاحظ: البيان والتبيين ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .
- إيليا حاوي: في النقد والأدب ، دار الكتاب اللبناني بيروت ط الرابعة 1979 .
- جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين بيروت مكتبة النهضة بغداد 1978 .
- زكريا إبراهيم: مشكلة الإنسان مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة القاهرة د . ت
- عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد والغربة في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير مخطوط جامعة القاهرة 1978 .
- عبد الكريم سليمان أبو خشان: تمرد بشار بن برد ، رسالة ماجستير مخطوط جامعة الإسكندرية 1977 .
- عبد المجيد هندي: دراسات في الأدب الجاهلي وصدر الإسلام د . ت .
- عنترة بن شداد: ديوان عنترة ، المطبعة التجارية القاهرة د . ت .
- فتحي السعيد: الشعراء الفرسان ، الدار القومية للطباعة والنشر د . ت .
- كريم الوائلي: الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية ، الدار العالمية القاهرة د . ت .
- كمال أبوديب الرؤى: الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1986 .
- محمد هاشم عطية: الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط 2 ، 1936 .
- محمود ذهني: سيرة عنترة ، دار المعارف مصر 1977 .
- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف ط 4 ، 1966 .